Comprehensive Journal of Science
Volume (10), Issue (39), (March, 2026)
ISSN: 3014-6266

مجلة العلوم الشاملة
المجلد (10) العدد 39 مارس 2026
ردمد: 3014-6266

نحول العشاق وآليات الدفاع المزدوجة والمركبة في الغزل العربي القديم

علي محمد عيسى عبد الرحيم الشاظوف.

أستاذ مشارك/ قسم الأدبيات كلية اللغة العربية بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية/ البيضاء/ ليبيا.

alialshaithof68@gmail.com

نسيبة سعد الفيتوري عبد الرحمن.

أستاذ مساعد/ قسم الأدبيات كلية اللغة العربية بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية/ البيضاء/ ليبيا.

alfytwrynsybt65@gmail.com

تاريخ الاستلام:2025/12/5 -تاريخ المراجعة: 2026/01/16- تاريخ القبول: 2026/02/26- تاريخ للنشر: 11/ 03/ 2026

ملخص البحث:

تقارب هذه الدراسة **ظاهرة نحول العشاق في الغزل العربي القديم** بوصفها استراتيجية دفاعية لاشعورية، متجاوزةً القراءات البلاغية التقليدية، وتعتمد المنهج النفسي، والوصفي التحليلي؛ لتفكيك هندسة "آليات الدفاع المزدوجة" (بتضافر آليتين) و"المركبة" (بثلاث آليات فأكثر)، التي ابتكرها العقل الباطن؛ لحماية الذات العاشقة من الانهيار النفسي، والجسدي، وخلص البحث إلى براعة الشعراء في توظيف هذه المنظومات المعقدة؛ لتحويل التآكل الجسدي من ضعف عضوي إلى أداة حجاجية محققًا خلودًا فنيًا ينتصر في عالم النص.

Abstract:

This study examines the phenomenon of lovers' emaciation in ancient Arabic poetry as an unconscious defense strategy, transcending traditional rhetorical readings. It employs psychological and descriptive-analytical approaches to deconstruct the architecture of "dual defense mechanisms" (the integration of two mechanisms) and "complex defense mechanisms" (three or more mechanisms) devised by the subconscious mind to protect the self from existential collapse. The research concludes by highlighting the poet's ingenuity in employing these complex systems to transform physical deterioration from an organic weakness into an argumentative tool, thereby achieving an artistic immortality that triumphs within the realm of the text.

الكلمات المفتاحية: نحول العشاق، الشعر العربي القديم، التحليل النفسي، آليات الدفاع المزدوج، آليات الدفاع المركب.

Keywords: Lovers' emaciation, Ancient Arabic poetry, Psychoanalysis, Dual defense mechanisms, Complex defense mechanisms.

مقدمة البحث:

شكلت ظاهرة العشق في الغزل العربي القديم فضاءً رحباً لتجليات النفس الإنسانية في أقصى أحوال توترها واغترابها، ولم تكن التجربة العاطفية لدى الشاعر العربي مجرد معاناة وجدانية حبيسة الروح، بل امتدت لتترك آثارها العميقة على الجسد، متجليةً في ظاهرة النحول، والتآكل العضوي، غير أن القراءة النقدية التقليدية طالما وقفت عند هذا النحول بوصفه

عرضًا مرضيًا، أو مشاهد غزلية مكررة، أو دليلاً مادياً على صدق العاطفة، دون أن تغوص في البنية التحتية اللاشعورية التي تدير هذا الانهيار.

أهمية الموضوع:

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تقدم مقاربة بينية تزاوج بين النقد الأدبي، وعلم النفس التحليلي، وهذا يسهم في تجديد آليات قراءة التراث الشعري العربي، كما تبرز أهميتها في إعادة الاعتبار لجسد العاشق المتآكل في قصيدته، لا بوصفه دليلاً على الاستسلام، والفناء، بل بوصفه وثيقة نفسية، وأداة حجاجية تعكس عبقرية العقل الباطن للشاعر في ابتكار هندسة دفاعية معقدة تحمي كبرياءه، وتحول هزيمته الواقعية في عالم الغرام إلى انتصار فني.

أسباب اختيار الموضوع:

تضافرت عدة أسباب لاختيار هذا الموضوع، يمكن إجمالها في شقين:

أسباب موضوعية: تتمثل في ندرة الدراسات النقدية التي تناولت ظاهرة نحول العشاق من منظور سيكولوجي دقيق يركز على آليات الدفاع المزدوجة، والمركبة، فمعظم الدراسات اكتفت بالتحليل البلاغي، أو الوصفي للجسد، وهو ما ترك فجوة بحثية تستدعي تسليط الضوء على الفاعلية النفسية لهذا الانهيار العضوي، وقد تم الاقتصار في هذه الدراسة على آليات الدفاع المزدوجة، والمركبة في ظاهرة نحول العشاق؛ لأنها تمثل بؤرة صراعية نفسية أكثر تركيزًا، فكلما زادت حدة الصراع النفسي للعاشق مع نحوله، وتجربته العاطفية زادت آليات الدفاع؛ ليكشف عن كثافة الأزمة العاطفية التي يعيشها الشاعر العاشق، وقوة الصراع النفسي.

أسباب ذاتية: الشغف بتفكيك البنية النفسية للشاعر العربي في الغزل القديم، واستكشاف الكيفية، التي يناور بها العقل الباطن من خلال اللغة للالتفاف على قسوة الحرمان، وتحويل الهشاشة الإنسانية إلى سيمفونية جمالية خالدة.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتحدد مشكلة البحث في القصور النقدي عن استيعاب ظاهرة نحول العشاق كاستراتيجية دفاعية نشطة، فالذات العاشقة حين يحاصرها الفقد، لا تنهار بصمت، بل تستنفر منظومة معقدة من الحيل النفسية؛ لترميم تصدعاتها، وتتفرع من هذه المشكلة التساؤلات الجوهرية الآتية:

1- كيف وظف الشاعر العربي العاشق في الغزل القديم آليات الدفاع النفسي؛ لتحويل نحوله من ضعف عضوي إلى قوة فنية؟.

2- ما طبيعة آليات الدفاع المزدوج، التي لجأ إليها الشعراء العشاق لمواجهة صراعاتهم العاطفية؟.

3- كيف تشكلت آليات الدفاع المركب من ثلاث آليات فأكثر، حين بلغت الأزمة الوجودية المتمثلة في نحول العاشق ذروتها؟ وأي الآليات كانت الأكثر حضورًا، وفاعلية؟.

فرضيات البحث:

ينطلق هذا البحث من جملة من الفرضيات الأساسية، التي يسعى إلى إثباتها عبر استنطاق النصوص، وهي:

الفرضية الأولى: إن ظاهرة النحول في الغزل العربي القديم لم تكن مجرد استجابة عضوية سلبية، أو عرضًا مرضيًا، بل هي طريقة دفاعية نشطة، وأداة حجاجية يستخدمها العقل الباطن؛ لحماية الذات من الانهيار.

الفرضية الثانية: إن تشابك الصراعات النفسية (الداخلية والخارجية) دفع الشعراء العشاق الذين أصابهم النحول إلى تجاوز الحيل الدفاعية البسيطة، وابتكار آليات دفاع مزدوجة تعمل بالتآزر؛ لتوفير حماية ذاتية متعددة الأبعاد.

الفرضية الثالثة: كلما اشتدت الأزمة الوجودية، واقترب جسد العاشق من التلاشي التام ارتقى العقل الباطن إلى استخدام آليات دفاع مركبة (ثلاث آليات فأكثر)؛ لتحويل الهزيمة العضوية إلى انتصار فني، وخلود رمزي.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الغايات الآتية:

1- كشف الأبعاد النفسية لظاهرة النحول في الغزل العربي القديم، وبيان كيفية استخدام الشاعر لها كاستراتيجية دفاعية لاشعورية لحماية ذاته.

2- رصد، وتحليل آليات الدفاع المزدوج، التي ابتكرها الشعراء العشاق؛ لمواجهة صراعاتهم العاطفية، والوجودية المترتبة على نحول أجسادهم.

3- تفكيك آليات الدفاع المركب (ثلاث آليات فأكثر)، وبيان دورها في حماية الذات العاشقة من الانهيار الشامل.

4- إبراز عبقرية الشاعر العربي العاشق كمهندس نفسي استطاع تحويل الهزيمة العضوية، والتآكل الجسدي إلى انتصار فني، وخلود رمزي.

الدراسات السابقة:

بعد الاستقصاء الدقيق لم يقف الباحث -في حدود علمه- على أي دراسة سابقة تناولت ظاهرة نحول العشاق في الشعر العربي القديم، سواء من الناحية الفنية أم النفسية، فرغم وجود مؤلفات عامة في التحليل النفسي للأدب مثل جهود عز الدين إسماعيل، إلا أنها لم تلتفت مطلقاً إلى هذه الظاهرة، ومن هنا تتجلى الجدة العلمية المطلقة لهذا البحث بوصفه دراسةً بكرًا، ورائدةً تسد فجوة نقدية واضحة، وتؤسس لقراءة نفسية غير مسبوقة تنقل جسد العاشق المتآكل؛ بسبب نحوله الذي نتج بدوره عن انقطاع التواصل مع محبوبته، لأي سبب من الأسباب من دائرة الصمت النقدي إلى دائرة التحليل العميق كاشفةً عن خطة الدفاع المزدوج، والمركب في الغزل العربي.

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: يقتصر البحث على دراسة ظاهرة نحول العشاق، وتحليلها وفق منظور آليات الدفاع النفسي المزدوجة، والمركبة.

الحدود الزمانية والمكانية: يمتد البحث في فضاء الشعر العربي القديم مستندًا إلى ظاهرة نحول العشاق في فترة تمتد من العصر الجاهلي مرورًا بالعصر الأموي وصولاً إلى العصر العباسي؛ لضمان تنوع المآزق الوجودية، وتعدد الاستجابات النفسية.

منهج البحث:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي مدعوماً بآليات المنهج النفسي؛ لمقاربة ظاهرة "نحول العشاق"؛ حيث تكفل المنهج الوصفي التحليلي بقراءة النصوص، واستنطاق دلالاتها الفنية، بينما شكل المنهج النفسي الأداة الأساسية لولوج البنية اللاشعورية للذات العاشقة، وتفسير النحول من خلال آليات الدفاع (المزدوجة والمركبة)، واقتصر البعد التاريخي في البحث على الترتيب الزمني للشعراء لأغراض تنظيمية محضة، دون تتبع لتطور الظاهرة تاريخيًا.

خطة البحث:

للإجابة عن تساؤلات الدراسة، وتحقيق أهدافها انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت الإطار المنهجي للبحث (أهميته، وأسبابه، ومشكلته، وفرضياته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهجه، وحدوده، وخطته).

التمهيد: وخُصص لضبط المفاهيم الإجرائية لآليات الدفاع النفسي، وتأصيلها علميًا.

المبحث الأول: وتناول آليات الدفاع المزدوجة، التي ابتكرها الشـعراء للتخلص نفسـيًا من كآبة منظر النحول الجسـدي، والأمراض التي أصابتهم؛ بسبب العشق، وتم رصد تجليات الازدواج الثنائي بين الآليات مثل: التعويض والإزاحة، والإسقاط والتبرير، وغيرها في نصوص الشعراء.

المبحث الثاني: واختص بآليات الدفاع المركبة محللاً المنظومات النفسـية المعقدة، التي تتألف من ثلاث آليات فأكثر، وذلك لمواجهة الانهيار النفسي، والجسدي للعاشق.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة.

قائمة المصادر والمراجع.

تمهيد: في تأصيل ظاهرة نحول العشاق ومفاهيمها:

احتل الغزل مكانة بارزة في الشـعر العربي القديم، وتعددت ظواهره الفنية، والنفسـية مثل البكاء على الأطلال، وطيف الخيال، ورغم دراسـة النقاد للعديد من هذه الظواهر، بقيت ظاهرة "**نحول العشـاق**" بحاجة إلى تتبع دقيق لبيان أثرها في آليات الدفاع النفسـي، ولتأصـيل هذه الظاهرة نجد أن العشـق لغةً يدل على فرط الحب، وتجاوز حدوده (ابن فارس، 1993م)، وهو مأخوذ من نبتة "العَشَـقة" التي يذبل قاطعها، فكذلك العاشـق يذبل، ويفنى (ابن منظور، 1993م)، واصـطلاحًا، ونفسـيًا يُعد العشـق حالاً قاهرة تخرج عن إرادة الإنسـان تتولد في القلب، وتنهك الجسـد، وقد عرفته إحدى الأعرابيات بأنه داء: ((يذهب العقل، وينحل الجسـم، ويهمل الدمع بمرور الأيام، ولا تفسـده إسـاءة المحبوب)) (الأنطاكي، 1986، ص 24).

أما النحول فيدور معجميًا حول معاني الهزال، والدقة، والسـقم، ورقة الجسـد الناتجة عن المرض، والهم (الفيومي، 1977م)، وقد فسر القدماء هذا التلازم بين العشق، والنحول طبيًا بأن الحرمان يولد بخارات رديئة تنحدر إلى الكبد، فتمنع شهوة الطعام، والشراب، وهو ما يؤدي إلى تآكل الجسم، وضعف قواه، وقد تستقر في الدماغ، فتورث الجنون (الأصبهاني، 1985م).

ومن المنظورين النفسـي، والفني تتجاوز ظاهرة "**نحول العشـاق**" البعد العضـوي؛ لتصـبح استجابة وجدانية قاهرة لصـد المحبوب، أو قيود المجتمع، وفنيًا اتخذ الشـعراء من هذا الهزال قنطرة لبلورة الألم المكبوت، محولين إياه إلى تآكل مادي يُرى، ويُحس، فلا يقف عند شـحوب الوجه، بل يغوص لتصـوير احتراق الأعضـاء الحيوية مثل القلب، والكبد؛ لتُجسّـد هذه الظاهرة صراعًا تراجيديًا بين مادة جسدية تسير نحو الفناء، وروحٍ تستعصي على النسيان.

مما سـبق يمكن القول إن نحول العشـاق ظاهرة نفسـية، وجسـدية، وفنية مركبة تتمثل في التدهور العضـوي، والهزال الشـديد، الذي يصـيب جسد العاشـق ظاهرًا وباطنًا، كنتيجة حتمية لاضـطراب وجداني قاهر ينشـأ عن فرط التعلق، والفقد، وتُشـكل هذه الظاهرة في شـعر الغزل العربي القديم، حين بلغ العشـق ذروة المأسـاة، وانسـحقت الذات العاشـقة تحت وطأة الصـراع النفسـيّ، فلا تركن النفس البشـريّة إلى هذا الانهيار طويلاً، وعندما تتكالب صـراعات الداخل، وقسـوة الحرمان، ويُصبح ألم الوجدان نصـلًا يُهدّد بتمزيق الكيان، وتترجم الأجساد هذا الخراب نحولًا، وتلاشيًا، تنهض الذات العاشقة؛ لتبني حصـونها الخفيّة، ففي اللحظة، التي يوشـك فيها الوعي على الغرق في العدم تنتفض غريزة البقاء الباطنية؛ لتبتكر طرائقها الخاصة في المقاومة متوسلةً بآليات الدفاع النفسي؛ لحماية الكيان من التصدع.

وهنا تتدخل آليات الدفاع لا بوصـفها مجرد حيلٍ للهروب، أو أكاذيب نختلقها لنتوارى عن أنظار العالم، بل هي طريقة نفسـية بالغة التعقيد تبتكرها الذات الناحلة؛ لترميم التصـدّعات، التي تركتها لوعة الفقد في جدار الروح، والجسـد، ولحمايتها من الانهيار الشـامل أمام طغيان القلق والإحباط (فرويد، آ، 1972م)، وتعمل هذه الآليات في منطقة الظل من الوعي (اللاشعور)؛ حيث يعمل على تزييف الواقع تزييفًا وقائيًا يخفف من حدة الصدمة، وتُدير تفاوضًا سريًا، ومستمرًا بين رغبات "الهو" المكبوتة، وقيود "الأنا الأعلى" الصارمة، وواقعٍ خارجيٍ يرفض الاستجابة.

وفي هذا المســرح الوجودي المأزوم، لا تكتفي النفس بالدفاع الســلبي المحض، بل تعيد صــياغة الألم، وتُلبس الهزيمة ثوب الانتصــار، وعندما يعجز الجســد عن تحمل وطأة العاطفة، ويبدأ في النحول، والتلاشــي يتدخل العقل الباطن؛ ليعيد توجيه هذه الطاقة التدميرية من خلال آليات غير شــعورية، فالنحول هنا لم يعد مجرد عرضٍ مرضــيٍّ، بل غدا أبجديةً الوجع، ومادةً خامًا تستخدمها النفس في معركتها، فتارةً تعمد إلى التبرير؛ لتمنح هذا الضعف العضوي نبلًا، وحتميةً قدرية، وتارةً تلجأ إلى الإسقاط؛ لتُلقي بعبء هذا العجز على الآخرين حمايةً لكبريائها الجريح.

ولا تقف حيل النفس عند هذا الحد، بل تتجاوزه إلى مناوراتٍ أشــد تعقيدًا، فقد تمارس الكبت؛ لتدفن الوجع في أقبية النسيان، أو تتبنى التكوين العكسي؛ لتُظهر نقيض ما تُبطن، أو تبتكر تعويضًا خياليًا يسد رمق الحرمان، وحين تضيق كل السـبل ترتقي الذات بهذا الخراب إلى التسـامي محولةً الصــراع الداخلي الممزق، والتآكل الجســدي الفاضــح إلى قوة دافعةٍ للإنجاز، والبقاء (زهران، 2005م).

ولعل الغزل العربي القديم كان الســاحة الأرحب، والأنقى التي تجلت فيها هذه الآليات، فلم يكن الشــاعر مجرد ناقلٍ عاطفة، بل كان مهندسًا نفسيًا يحول النحول الجسدي، والاحتراق الوجداني إلى نصوصٍ خالدة، فالقصيدة في جوهرها هي وثيقةٌ نفسـيةٌ تشـهد على براعة العقل الباطن في تحويل الهشـاشـة الإنسـانية إلى قوةٍ فنيةٍ تقهر الفناء، وتجعل من الصــراع الداخلي سيمفونيةً جماليةً تعبر الأجيال.

وقبل الولوج في تفكيك هذه السيمفونية الجمالية، واستنطاق النصوص الشعرية؛ لكشف آليات الدفاع المزدوجة، والمركبة التي هندســها العقل الباطن للشــعراء العشــاق في مواجهة نحول أجســادهم، ومرضــها، يقتضــي المنهج العلمي تحرير المصطلحات، وضبط المفاهيم الإجرائية لهذه الآليات النفسية، ويمكن إجمال أبرزها في الآتي:

1- **التبرير:** حيلة دفاعية غير شعورية يلجأ إليها الفرد؛ لتخفيف القلق عبر توليد تفسيرات منطقية ظاهريًا لسلوكيات، أو مشـاعر غير مقبولة بهدف حماية تقدير الذات،(زهران، 2005م)، ويتجلى في الشـعر عبر تسـويغ الشـاعر لانكساراته بمبررات نبيلة، أو قدرية تحول الضعف إلى قوة.
2- **الإسقاط:** هو فعل آلي غير شعوري ينفي فيه الفرد صفاته، أو مشاعره غير المقبولة، ويلحقها بالآخرين تهرباً من الشـعور بالذنب،(زهران، 2005م)، ويوظفه الشـاعر لإسـقاط هواجسـه، وانكسـاراته على عناصـر الطبيعة، أو الآخرين، وهذا يمنح تجربته أبعادًا إنسانية أرحب .
3- **التسـامي أو الإعلاء:** آلية دفاعية راقية يتم من خلالها تحويل القدرات، والنزعات المسـتعصـية على الإشـباع إلى نتاجات إبداعية، وحضـارية،(زهران، 2005م)، وفي الشـعر يمثل عملية تحويلية يصـوغ بها الشـاعر خيباته في قوالب جمالية خالدة تتجاوز فناء الجسد.
4- **التكوين العكسي:** حيلة غير واعية يكشف فيها الفرد عن نقيض مشاعره، أو دوافعه الحقيقية المؤلمة بشكل مبالغ فيه؛ لإخفاء الدافع الأصلي، وحماية الذات من القلق، والصراع الداخلي (فرويد، آ.، 1972م؛ زهران، 2005م).
5- **الكبت:** آلية أساسية يعمل العقل عبرها على إبعاد الأفكار، والرغبات المؤلمة من حيز الوعي إلى اللاوعي للحفاظ على التوازن النفسي(فرويد، س.، 1982م، ؛ جلال، 2018م)، وهو في الشعر طاقة محركة للإبداع تحول التجربة إلى فن.
6- التحايل: استراتيجية دفاعية للالتفاف على الصراعات باستخدام الذكاء، والمراوغة لإيجاد مخارج آمنة دون اصطدام مباشر مع الرقيب،(فرويد، س.، 1982م)، ويظهر في الشعر كطاقة حجاجية يقلب بها الشاعر موازين القوى؛ لتبرير ضعفه .
7- **التعويض:** محاولة غير شــعورية؛ لتجاوز مشــاعر النقص عبر التفوق في مجال آخر لاســتعادة التوازن،(أدلر، 2005م)، (زهران، 2005م)، وشعريًا يجد الشاعر في القصيدة فضاءً رمزيًا يعوض فيه ما فقده في الواقع .

8- **الإزاحة:** آلية غير واعية ينقل العقل عبرها الانفعالات من هدفها الأصـــلي المســـبب للقلق إلى هدف بديل أقل تهديدًا؛ لتصريف المكبوتات بطرق آمنة (طه وآخرون، د.ت)، (زهران، 2005م).

9- **الإنكار:** حيلة دفاعية غير شــعورية يرفض الفرد عبرها الاعتراف بوقوع حدث مؤلم، أو حقيقة موضـــوعية تهدد توازنه؛ ليتصـــرف وكأن التهديد غير موجود،(زهران، 2005م ؛ فرويد، آ.، 1972م)، وفي الشـــعر يتجلى في مكابرة العاشـــق وادعائه التعافي، أو تجاهله لانهياره العضـــوي (النحول) محاولاً فرض واقع وهمي يقيه شـــر الصدمة، والانهيار المفاجئ.

10- **النكوص:** ارتداد غير شــعوري إلى مراحل ســابقة من النمو النفســي، أو أنماط الســلوك الطفولي حين تعجز الذات عن مواجهة أزمات تفوق قدرتها على التحمل (فرويد، س. 1982م)،(زهران، 2005م)، وفي الشعر تبرز هذه الحيلة حين تنهار دفاعات الشـاعر الناضـجة، فيلوذ بالبكاء، والاسـتجداء، والاعتماد المطلق على قوة خارجية أو غيبية لإنقاذه متخلياً عن فاعليته.

11- **التماهي:** حيلة دفاعية غير شعورية يدمج فيها الفرد خصائص شخص آخر،(زهران، 2005م)، أو شيئًا ماديًا (مثل الأطلال) في ذاته، أو يندمج هو فيها؛ ليخفف من حدة القلق، والفقد، وفي الشعر يتجلى التماهي حين يذيب الشاعر الفواصل بينه، وبين عناصر الطبيعة، أو الجماد؛ لتصبح مرآة تعكس ألمه، وتشاركه الوجيعة، وهو ما يمنحه العزاء، والمواساة.

وبعد إرساء هذه القواعد والمفاهيم تتضح لنا الرؤية للانتقال إلى مسرح العمليات النفسية في القصيدة العربية؛ حيث لا تعمل هذه الآليات بشكل منفرد، بل تتشابك؛ لتكون منظومات حماية أكثر تعقيدًا.

المبحث الأول: آليات الدفاع المزدوج:

وهو اسـتراتيجية ذاتية مركبة تلجأ إليها الذات الشـاعرة، حين يكون الصـراع الداخلي حادًا ومتعدد الأوجه؛ حيث لا تكفي آلية دفاعية واحدة للتعامل معه، وفي هذه الحال يعمل الشاعر على دمج آليتين دفاعيتين مختلفتين بشكل متزامن، ومتكامل داخل النص الواحد؛ حيث تعمل كل آلية على جانب مختلف من الأزمة، فعوضًـــا عن الاكتفاء بحيلة واحدة، قد يجمع الشـاعر بين آلية عاطفية مثل التعويض بطيف الخيال؛ لتخفيف ألم الحرمان، وآلية معرفية مثل التبرير ؛ لتخفيف الشـعور بالنقص، أو لتقبل الفشـل المحتمل، وهذا التضـافر يخلق حماية نفسـية أكثر شـمولاً، فآلية الأولى قد تتعامل مع غياب المحبوب، بينما تتعامل الأخرى مع شـعور الشـاعر بالعجز، ويعمل الدفاع المزدوج كشبكة أمان من طبقتين، فيكشـف عن عمق الصـراع، الذي يواجهه الشـاعر، وحاجته إلى بناء حصـن دفاعي متعدد المسـتويات للحفاظ على توازنه النفسـي، ولم تتخذ هذه الطريقة المزدوجة مسـارًا واحدًا في غزل نحول العشـاق في الشـعر العربي القديم، بل تنوعت ثنائياتها، وتعددت ضروبها بتنوع المآزق الوجودية، والعاطفية التي كابدها الشعراء،، وللإحاطة بعمق هذه التجربة، يمكننا رصد تجليات الدفاع المزدوج وتصنيفها في عدة نقاط أساسية تكون كل نقطة منها تضافرًا فريدًا بين آليتين دفاعيتين؛ لمواجهة ضرب محدد من الوجع، وذلك على النحو الآتي:

1/ الازدواج بين آليتي التعويض والإزاحة:

يكون انسجام هاتين الآليتين درعًا نفسيًا متكاملاً؛ إذ يتكفل التعويض بترميم الفراغ العاطفي عبر خلق بدائل خيالية، بينما تعمل الإزاحة على تصـريف فائض الألم نحو أهداف خارجية آمنة، وهذا التضـافر يمنح النص الشـعري حركية مزدوجة، ويقي الشـاعر شـر الانهيار الداخلي، وهو ما يتجلى بوضـوح في أبيات عنترة بن شـداد حين يقول(ابن شـداد، 1992م، ص66):

إذا رشقت قلبي سهام من الصد وبدَّل قربي حادث الدهر بالبعد

لبست لها درعًا من الصبر مانعًا ولا قيت جيش الشوق منفردًا وحدي

وبت بطيف منك يا عبل قانعًا ولو بات يسري في الظلام على خدي
فبالله يا ريح الحجاز تنفسي على كبد حرّى تذوب من الوجد

تصف هذه الأبيات صراعًا نفسيًا متعدد الجبهات؛ حيث لا يواجه الشاعر عدوًا واحدًا، بل جيشًا من الأعداء الداخليين، والخارجيين، وقد تمثل الصراع الأول ضد حادث الدهر الذي يفرض الصد، والبعد، وهو عدو خارجي لا يمكن التحكم به، والصراع الثاني، وهو الأشد، هو صراع داخلي ضد "جيش الشوق"، الذي يهاجم الذات من الداخل، وضد الشعور بالضعف، الذي يهدد كيان الفارس الصلب، فهذه المواجهة المزدوجة تتطلب خطة دفاعية مزدوجة، لا تكتفي بحيلة واحدة، بل تبني حصنًا منيعًا من آليتين متكاملتين، ففي مواجهة هذا الهجوم تبرز آلية التعويض مثل خط دفاع أولي، وحاسم، فالشاعر المحروم من القرب الواقعي، لا يستسلم للفراغ، بل يخلق بديلاً يعوض هذا الفقد، وهذا البديل هو طيف عبلة ،الذي يبيت معه، وتعويض عنترة ليس هزيمةً، أو استسلامًا، بل هو قناعة واعية، ومختارة، فهو يختار أن يكتفي بهذا الطيف حتى لو كان مجرد خيال يسري على خده كالدمع محولاً الهزيمة في الواقع إلى انتصار في عالم القناعة الداخلية، وهذا التعويض ليس حلمًا، بقدر ما هو قرار إرادي ورضا بالبديل، وهو ما يحفظ له كبرياءه، ويمكن أن نلاحظ أنه إلى جانب الطيف يظهر تعويض آخر في "لبس درع الصبر"، فيتم استبدال شعور الجزع، والضعف بفضيلة الصبر، التي تليق بمكانة الفارس، ومع كل هذا لا يكتمل الحصن التعويضي إلا بدعم من آلية الإزاحة، التي تظهر في نهاية الأبيات، فعندما يصل الألم إلى ذروته، وتصبح الكبد "حرّى تذوب من الوجد"، يدرك الشاعر أن الصبر، والقناعة وحدهما لا يكفيان، وهنا يلجأ إلى إزاحة أعمق مشاعره، وأكثرها إيلامًا إلى "ريح الحجاز"، فهو لا يطلب منها أن تحمل رسالة، لكنه يزيح إليها مهمة علاجية شبه مستحيلة، وهي أن تتنفس على كبده المحترقة؛ لتبردها، فهذه الإزاحة هي نقل للمعاناة من جسده إلى كيان خارجي قادر على الحركة، والوصول إلى ما لا يستطيع هو الوصول إليه، كما تعمل الآليتان معًا في تكامل بديع فالتعويض بالطيف، والصبر يبني حصنًا داخليًا للصمود، والإزاحة إلى الريح تفتح نافذة خارجية للتنفيس، وطلب الشفاء، وبهذا الدفاع المزدوج يتمكن الشاعر من مواجهة جيش الشوق منفردًا دون أن ينهار.

2/ الازدواج بين آليتي التعويض والتبرير:

يخلق التضافر بين هاتين الآليتين حصنًا وجوديًا بالغ التعقيد؛ إذ يتكفل التعويض بابتكار بديل خيالي يضمن الحد الأدنى من البقاء النفسي، بينما يتدخل التبرير؛ لمنح الانهيار العضوي معنىً نبيلًا، وحجةً منطقية، وهذا الانسجام يُكسب النص بُعدًا فلسفيًا يحمي الذات العاشقة من التلاشي التام، وهو ما يتجلى في تحول عنترة بن شداد نحو هذه الثنائية لمواجهة صراعٍ أشد فتكًا، حين يقول(ابن شداد، 1992م، ص ص 140 – 141):

وأرجو التداني منك يا ابنة مالكٍ ودون التداني نار حرب تضرم
فمني بطيفٍ من خيالك واسألي إذا عاد عنّي كيف بات المتيم
ولا تجزعي إن لجَّ قومك في دمي فما لي بعد الهجر لحمٌ ولا دم
ألم تسمعي نوح الحمائم في الدجى فمن بعض أشجاني ونوحي تعلَّموا
ولم يبق لي يا عبل شخصٌ معرَّف سوى كبدٍ حرَّى تذوب فأسقم
وتلك عظام باليات وأضلع على جلدها جيش الصدود مُخيم

تغوص هذه الأبيات في صراع نفسي يتجاوز مجرد الشوق والحرمان؛ ليصل إلى صراع الذات من أجل إثبات وجودها بعد أن أوشكت على التلاشي، فالصراع هنا ثلاثي الأبعاد: صراع ضد نار الحرب، التي تمنع الوصال، وصراع ضد قومها الذين يهددون حياته، والأهم صراع داخلي ضد التآكل الجسدي الكامل، الذي لم يترك منه لحمًا، ولا دمًا.

وأمام هذا التهديد الوجودي يشرع الشاعر في تفعيل خطه الدفاعي الأول؛ إذ يطلب من عبلة أن تمن عليه بطيف من خيالها، وهذا الطلب ليس رجاءً، ولكنه محاولة يائسة؛ لتعويض الغياب المادي بحضور خيالٍ يُغني عن التداني المستحيل،

ولكن عنترة يضـيف بعدًا جديدًا لهذا التعويض، فهو يطلب منها أن تسـأل الطيف العائد عن حاله محولًا الطيف من مجرد صورة صامتة إلى شاهد، ورسول تعويضًا عن انقطاع التواصل، والحوار.

وعندما يصل الصراع إلى ذروته، وتصبح التهديدات وجودية (تهديد بالقتل، وتلاشي الجسد)، لم يعد التعويض كافيًا، فهنا تبرز آلية التبرير النفسي مثل خط دفاع أعمق، وأكثر فعالية، فالشاعر لا ينكر فناء جسده، إنما يعترف به، ويقدم له تسويغًا يجعله مقبولاً، فعندما يقول: "**فما لي بعد الهجر لحمٌ ولا دم**"، فهو لا يشـــكو بقدر ما يبرر عدم جدوى قتله، فكيف يقتلون جسدًا قد تلاشى بالفعل بسبب الهجر؟، فقد حول الشاعر هذه الهزيمة الجسدية إلى حجة منطقية؛ لنزع سلاح الأعداء، ثم يعمق التبرير حين يربط نوح الحمام بأشـجانه، فهو لا يكتفي بقول إنه حزين، بل يبرر حزنه بجعله المصـدر الأصـلي لكل أحزان الطبيعة، مانحًا ألمه الفردي بعدًا كونيًا، وأسـبقية على كل الأحزان الأخرى، وبهذا التضـافر تنجح الذات في تحويل الضحية إلى أسطورة خلود؛ حيث يتكفل الخيال بإبقاء شعلة الروح متقدة، بينما ينزع المنطق سلاح الشامتين.

وإذا كان عنترة قد استخدم هذا الازدواج (التعويض والتبرير)؛ لمنح فنائه الجسدي بعدًا أسطوريًا، فإن ابن المعتز يوظف الثنائية ذاتها في ومضـةٍ دراميّةٍ خاطفة؛ لعقد صفقة نفسية تبتغي استرداد العافية من خلال ترياقٍ عاجل؛ حيث يقول (ابن المعتز، 1961م، ص396):

يا من رمتني عينه بسهم　　　أصاب جسمي فتداعى جسمي

هل لك في مغفرة عن جرم　　　وقبلة تريحني عن همي

يختزل النص صـراعًا نفسـيًّا حادًّا لا يتسـع لترف العتاب، فتنطلق المناورة بآليّة التبرير، التي تتجاوز مجرد تسـويغ الانهيار العضويّ؛ لتصوغ مسرحًا قضائيًّا مصغّرًا؛ إذ يُحيل الشاعر النظرة إلى سهمٍ جارح، ويصف فعل المحبوب بالجرم، وهذا التأطير القانونيّ الماكر يمنحه مشروعيّةً للتحول من خانة الضحيّة المستكينة إلى موقع المُطالب بالقصاص العادل.

واستنادًا إلى هذه الحيثيّات التبريرية تبرز آليّة التعويض؛ لتقديم تسويةٍ فوريّةٍ، فالشـاعر لا يسـتجدي وصـالًا ممتدًّا، بل يطالب بقُبلةٍ بوصفها ديةً ماديّةً، وترياقًا حاسمًا يُكافئ حجم التداعي الجسديّ، وهنا يتناغم التبرير، الذي يمنح النحول صفة الجناية مع التعويض، الذي يطرح القُبلة ككفّارةٍ علاجيّة ضمن اقتصادٍ نفسيّ يُعيد التوازن إلى الذات المنهكة بضربةٍ واحدة.

3/ الازدواج بين آليتي الإنكار والتبرير:

يُشكل الازدواج بين هاتين الآليتين خطة دفاعية متدرجة؛ حيث يتصدر الإنكار المشهد كدرع أمامي لرفض الواقع المؤلم، واختلاق التعافي، وحين يتهشـم العاشـق تحت وطأة الانهيار الجسـدي يتدخل التبرير كخط خلفي لترميم الهزيمة، وتسـويغ الفناء، وهذا الازدواج يمنح الذات المنهارة شعورًا وهميًا بالسيطرة، وهو ما يتجلى بوضوح عند ابن الدمينة في مواجهة انهيارٍ جسدي يفضح سطوة العشق، حين يقول (ابن الدمينة، 1379هـ، ص32):

لعمر أبي أسماء والنأي يشتفي　　　لقدمًا أرى الهجر الطويل شفاني

خليليَّ مكنون الهوى صدع الحشا　　　فكيف بمكنون الهوى تريان؟

برى الحب جسمي غير جُثمان أعظمي　　　بلين وإني ناطق بلساني

يغوص هذا النص في صـراعٍ باطنيّ تتصـادم فيه حقيقة الألم المدمّر مع مكابرة الذات وادعائها التعافي، ولترويض هذا التناقض تسـتهل الذات معركتها بإنكارٍ جازمٍ عبر قَسَمٍ مغلظٍ بالشـفاء في محاولةٍ قسـريةٍ؛ لفرض واقعٍ وهميّ ينفي الوجع، غير أن هذه المكابرة تتبدد سريـــعًا باعترافٍ لا إراديّ بتصدع الأحشاء، ولما عجز الإنكار عن إخفاء النحول، الذي برى الجسـد يُقرّ الشـاعر بدمار كيانه، لكنه يُعيد تأطير هذا الفناء متشـبثًا باحتفاظه ببقايا صـلبةٍ كالعظام، والقدرة على النطق محولًا التشبث بآخر رمقٍ في الجسد إلى حجةٍ منطقيةٍ تقي الروح شر الانهيار الشامل.

4/ الازدواج بين آليتي الإسقاط والنكوص:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين مسارًا انحداريًا للذات المأزومة؛ إذ تبدأ بمحاولة هجومية عبر الإسقاط؛ لتوريط الآخر في الألم، واستجداء الشراكة الوجدانية، وحين يفشل هذا المسعى، وتنهار الدفاعات الناضجة ترتد النفس نكوصًا إلى حال من العجز الطفولي، والاعتماد المطلق على قوة قاهرة، وهذا التحول الدرامي من المطالبة بالعدالة إلى الاستسلام التام يتجلى بوضوح في صرخة ابن الدمينة، حين يقول (ابن الدمينة، 1379هـ، ص ص192- 193):

دعوت إله الناس عشرين حجة نهارًا وليلاً في الجميع وخاليا

بأن يبتلى ليلى بمثل بليتي فينصفني منها لتعلم حاليا

فلم يستجب لي الله ولم يُفق هواي ولكن زيد حتى برانيا

فيارب حببني إليها وأشفني بها أو أرح مما يُقاسي فؤاديا

تتجاوز الذات في هذا النص صراعها الأرضيَّ؛ لتخوض مواجهةً يائسةً مع السماء بحثًا عن عدالةٍ مفقودةٍ، ففي محاولتها الأولى يُسقط الشاعر حاجته العميقة للاعتراف، والفهم على دعاءٍ عقابيٍ يرجو فيه للمحبوبة ألمًا مماثلًا ليس انتقامًا، بل استجداءً لشراكةٍ وجدانيةٍ تنصفه، غير أن فشل هذا المسعى لعقدين، وتفاقم الهوى حتى برى الجسد، وأحاله إلى حطامٍ يُسقط خط الدفاع الأول، وهنا تتخلى النفس عن مكابرتها متراجعةً من موقع المطالب بالعدالة إلى حال من التسليم المطلق، ويتجلى هذا الارتداد في صرخته الأخيرة للسلطة الإلهية متخليًا عن أيّ فاعليةٍ في إدارة صراعه؛ ليطالب بحلولٍ حديةٍ: إما معجزة الشفاء بالوصال، أو الراحة الأبدية بالموت، وبذلك ينتهي مسار الإسقاط الفاشل باستسلامٍ يضع مصير الجسد، والروح بين يدي قوةٍ قاهرةٍ.

5/ الازدواج بين آليتي الإسقاط والتبرير:

يُشكل الازدواج بين هاتين الآليتين مناورةً تبريريةً وهجوميةً في آنٍ واحد؛ إذ يتكفل الإسقاط بترحيل مسؤولية الانهيار الجسدي، والنحول إلى قوى خارجية كالقدر، أو المحبوب؛ لتبرئة الذات، بينما ينهض التبرير باستثمار التآكل الجسدي كأدلة مادية تسوغ هذا الاستسلام، ويمنح هذا التواطؤ النفسي الشاعر تفوقًا أخلاقيًا يضعه في مقام الضحية، وهو ما يتجلى في مقاربتين لعمر بن أبي ربيعة؛ حيث يقول في الأولى رافعًا مظلمته للسماء (ابن أبي ربيعة، د.ت، ص 58):

ولقد قلت إذ تطاول هجري رب لا صبر لي على هجر هند

رب قد شفني وأوهن عظمي وبراني وزادني فوق جهدي

رب حملتني من الحب ثقلاً رب لا صبر لي ولا عزم عندي

يبلغ الانكسار الوجوديُّ في هذا النص منتهاه؛ إذ تتنصل الذات من عبء المواجهة الأرضيّة؛ لترفع مظلمتها باحثةً عن صكِّ براءةٍ، فمن خلال "الإسقاط الرأسي" يُوجِّه الخطاب حصرًا للذات الإلهيّة، ناقلًا مسؤوليّة الانهيار من الهشاشة الشخصيّة إلى قسوة الاختبار القدريّ؛ ليغدو الخالق شاهدًا، وخصمًا في آنٍ واحد، ولتدعيم هذا التوجّه يأتي التبرير في صيغة اعترافٍ تشريحيٍ دقيق، فالشاعر يستعرض تآكل جسده، ووهن عظامه لا كشكوى مجرّدة، بل كأدلّةٍ ماديّةٍ يرفعها للسلطة العُليا تسويغًا لاستسلامه النهائيّ مُحيلًا الهزيمة العاطفيّة إلى حتميّةٍ لا ملامة فيها.

وفي مشهد آخر، يوجه الشاعر هذا الازدواج الدفاعي نحو المحبوب ذاته؛ حيث يقول (ابن أبي ربيعة، د.ت، ص 194):

يا خليليَّ عادني اليوم سُقمي فبرى داؤه لحيني عظمي

لمُصرٍّ أصرَّ واستكبر اليو م وظن الصدود ليس بظلم

ينطلق المشهد النفسيّ هنا من إقرارٍ مأساويٍّ بانهيار الجسد؛ وللإفلات من وطأة العجز، لا يكتفي الشاعر بوصف فعل المحبوب بالصدود المُجرّد، بل يُسقط عليه نوايا ودوافع سلبيّةً قاطعةً تتجلى في (الإصرار، والاستكبار، والظلم)، مُحوّلًا

الآخر من مجرّد حبيبٍ مُمتنعٍ إلى جلّادٍ مُستبدّ، وبمجرّد إرساء هذه الصورة، يُسوّغ الشاعر فناءه الماديّ؛ فجسده لم يضعف نتيجة هشاشةٍ عاطفيّةٍ، بل تحطّم تحت وطأة ظلمٍ قاهرٍ لا قِبَل للبشر بردّه، وبذلك يجعل من نحوله وثيقة إدانةٍ تفضح غطرسة الآخر وتُبرئ ساحته.

وضمن هذا السياق ذاته، يطالعنا العرجي كشاهد ثالث على هذا الازدواج (الإسقاط والتبرير)، ولكنه يتخذ مسارًا مختلفًا؛ إذ لا يُسقط نوايا الاستكبار على المحبوبة، بل يُسقط إرادته وفاعليته بالكامل بين يديها، حيث يقول(العرجي، 1998م، ص212):

وكيف تطيق الهجر نفس ضعيفة بكف سُليمى حلُّها وصفادها
فمنّي عليَّ اليوم سلمى وسددي وخير الأمور حين تنمى سدادها
فما القلب عن سلمى بجلدٍ وإن نأت وشر قلوب الواجدين جلادها
فلا النفس ترضى عن سُليمى بخلةٍ ولو نحلت نفسي وطال بعادها

في مقاربته لمأزق الإرادة المستلبة، يُوظف العرجي هذا الازدواج لتسويغ الاستسلام؛ ففي مواجهة شللٍ وجوديّ يضعه تحت رحمة المحبوبة، يعمد أولًا إلى الإسقاط مُجرّدًا كينونته من أيّ فاعليّةٍ، ليُلقي بمقاليد "الحلّ والصفاد" كاملةً في قبضة "سُليمى". وهذا التنازل الطوعيُّ ينقل مركز التحكّم إلى الخارج، مُحيلًا الشاعر من عاشقٍ يُكابد الهجر إلى كائنٍ مسلوبٍ يستجدي العطف.

ولدرء خزي هذا الخضوع المطلق، تتدخل آليّة التبرير لتصوغ فلسفةً مقلوبةً؛ إذ يُهاجم الشاعر صلابة القلب ويعدّها نقيصةً عاطفيّةً، مُرتقيًا بضعفه وعجزه ليغدوا برهانًا ساطعًا على أصالة الوجد. ويمتد هذا التسويغ ليحتضن "النحول" الجسديّ، جاعلًا من تآكل البدن ضريبةً حتميّةً لوفاءٍ لا يقبل البديل، ليكتسي هذا العجز جلالًا أخلاقيًّا يُحيل الهزيمة إلى ذروة النبل.

وفي مسارٍ ثالثٍ ضمن هذا الازدواج الدفاعي (الإسقاط والتبرير)، يوجه علي بن الجهم بوصلة الإسقاط وجهةً مختلفة؛ فبينما أسقط عمر الظلم على المحبوب، وأسقط العرجي إرادته، يُسقط ابن الجهم أمنياته المستحيلة على ألسنة "الحُسّاد"، مسوغًا في الوقت ذاته فناءه بخُلف المحبوب، حيث يقول (ابن الجهم، د.ت، ص ص 126– 127):

ما ضرَّه لو وفى بما وعدا أليس وجدي به كما عهدا
في كل يوم يزيدني أملاً والجسم يبلى بخُلفه كمدا
كم حاسدٍ لي يراه طوع يدي فحقق الله ظنَّ من حسدا

يتبلور في هذا المقطع مأزقٌ وجدانيّ تتصادم فيه ديمومة الوفاء مع خيبات الأمل المتكررة، التي تنهش البنية العضويّة للشاعر، وللإفلات من قبضة هذا العجز تنطلق المناورة الأولى عبر تبرير الانهيار الجسديّ؛ إذ لا يعزو الشاعر ذبول جسده إلى هشاشته الذاتيّة، بل يجعله نتيجةً حتميّةً لخُلف المحبوب، ونكثه للوعود مؤسسًا محاكمةً منطقيّةً تُدين الجلاد، وتُبرّئ الضحيّة.

وحين يبلغ الاختناق مداه يقفز الشاعر نحو آليّة الإسقاط في التفاتةٍ نفسية بارعة، فبدلًا من الاعتراف بافتقاده للسيطرة على محبوبه، فيُسقط أمنيته الدفينة بالاستحواذ على ألسنة الحُسّاد مُدّعيًا أنهم يرون المحبوب خاضعًا لسطوته، ولا يكتفي هذا الإسقاط الماكر باختلاق واقعٍ بديلٍ يُرضي غروره الجريح، بل يتوّجه بدعاءٍ يائسٍ يرجو فيه تحويل ظنون الحُسّاد الوهميّة إلى حقيقة، وبذلك يرمم الإسقاط كبرياءه المهدور، بينما يمنح التبرير نحوله الجسديّ شرعيّةً أخلاقيّةً؛ ليخلقا معًا مساحةً وهميّةً ينتصر فيها العاشق على خيبته.

وفي مقاربةٍ رابعةٍ ضمن هذا الازدواج بين الإسقاط، والتبرير يغادر الخبز أرزي مساحة الشكوى العاطفيّة؛ ليتقمّص دور المُشخّص العياديّ الصارم؛ حيث يُجرّد الذات من مسؤوليّة الانهيار، ويُسقط علله العضويّة على المحبوب مُبرّرًا هذا الفناء بأدلةٍ جماليّةٍ قاطعة، حين يقول (الخبز أرزي، 1989م، ص192):

ظبي نفى عن جفني الوسن فبت سقيمًا أقاسي الحزن
مليح الدلال بديع الجما ل معتدل القد يحكي الغُصن
أمات فؤادي بلحظاته وأورث جسمي سقامًا ووهن
فقلبي سقيم وجسمي نحيل ودمعي غزير هطول هتن

تنطلق المناورة بآليّة الإسقاط؛ إذ تعمد الذات إلى مصادرة أيّ مسؤوليّةٍ داخليّةٍ عن الأرق، والوهن مُسندةً فعل التدمير حصريًّا إلى فاعلٍ خارجيّ تمثل في الحبيبة (الظبي)، فهذا التوجيه يُعفي الشاعر من عبء الهشاشة، ويُحدّد المُتّهم الأوحد في قضيّة التآكل الجسديّ، ولتحصين هذا الاتهام تتدخّل آليّة التبرير لتبني سرديّةً سببيّةً مُحكمةً؛ فالشاعر لا يكتفي بإلقاء اللوم، بل يُقدّم حيثيّاتٍ منطقيّةً تُسوّغ هذا الانهيار العضويّ، متّخذًا من الجمال الفائق دافعًا، ومن النظرات أداةً للجريمة؛ ليخلص في النهاية إلى نتيجةٍ حتميّةٍ تتجلّى في قائمةٍ من الأعراض (قلب سقيم، جسم نحيل)، وهكذا يتكفّل الإسقاط بتحديد مصدر الداء، بينما ينهض التبرير بربط الأسباب بالنتائج؛ ليتحوّل العاشق من ضحيّةٍ مُستلبةٍ إلى مُشخّصٍ واعٍ يُبرهن على حتميّة نحوله.

ولعل تتويج هذا الازدواج الدفاعيّ (الإسقاط والتبرير) يبلغ ذروته عند المتنبي؛ إذ يُجرّد ذاته المتعالية من حصانتها العاطفيّة مُلقيًا بتبعات تآكله الجسديّ، والروحيّ في شباك المحبوب؛ ليُسوّغ هذا الانهيار بحتميّةٍ بصريّةٍ قاهرة حين يقول(المتنبي، د.ت، ص304):

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكنَّ من يُبصر جفونك يعشق

يُعالج المتنبي في هذا المقطع صدمة الانهيار النرجسيّ لـــ "أنا" اعتادت الترفّع، والصلابة؛ لتجد نفسها فجأةً في قبضة استلابٍ عاطفيّ، وجسديّ عنيف، ولترميم هذا الصدع ينطلق الشاعر من آليّة الإسقاط؛ إذ يتنازل طوعًا عن ملكيّة ألمه، وما تبقّى من أشلائه العضويّة مُسندًا مسؤوليّة هذا الخراب الشامل إلى فاعلين خارجيين: "**عيني المحبوب**"، و"**سلطة الحب**"، فهذا الإسقاط يُزيح عن كاهله عبء الهزيمة الداخليّة؛ ليجعل من النحول، والفناء ضريبةً لسطوةٍ خارجيّةٍ لا قِبل له بها.

ولتحصين هذا الموقف تتدخّل آليّة التبرير في البيت الثاني لإنقاذ الكبرياء الجريح؛ فالشاعر ينفي عن تكوينه النفسيّ أيّ استعدادٍ فطريّ للضعف، أو الانقياد للعشق مُبرّرًا سقوطه المدوّي بقوّةٍ قاهرةٍ تتجاوز قدرة البشر على المقاومة، فالتبرير هنا لا يعتذر عن الحب، بل يصوغ قانونًا حتميًّا يجعل من مجرّد الإبصار علّةً كافيةً للاستسلام، وبهذا يتضافر الإسقاط، الذي يُبرّئ الذات، مع التبرير، الذي يمنح السقوط طابعًا جبريًّا؛ ليحفظ للمتنبي كبرياءه حتّى في أقصى درجات التلاشي.

6/ الازدواج بين آليتي التبرير والتحايل:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين استراتيجية حجاجية بارعة؛ لصد الهجوم الخارجي؛ إذ ينهض التبرير بصياغة أعذار فلسفية ترتقي بالضعف إلى مرتبة القانون الحتمي، بينما يتدخل التحايل؛ لقلب موازين المنطق مجردًا الخصوم من أسلحة اللوم عبر حجج تمويهية لا تقبل الدحض، وهذا ما يتجلى بوضوح عند بشار بن برد في مواجهة اللوم الاجتماعيّ، الذي يطالبه بصلابة الصخر بدل الضعف الجسدي، والنحول في الغرام؛ حيث يقول(ابن برد، 1954م، ص195):

تعجبت جارتي منّي وقد رقدت عنّي العيون وبات الهم محتشدا
....
لكن في الحب أسقامًا منهلة لذي الحلاوة حتى يجهد الكبدا
فلن أكون حديدًا في مقالتكم كما خلقت ولا صوانة صلدا

يخوض الشاعر هنا معركةً خارجيّةً ضدّ أصوات اللوم، التي تُصادر حقّه في التألّم، وتُطالبه بصلابةٍ تُنافي طبيعة العشق، ولردع هذا الهجوم يبتدئ بشار بالتبرير الفلسفيّ، الذي يرتقي بالأسقام من خانة الضعف الشخصيّ إلى مرتبة القانون الكونيّ الملازم لحلاوة الحب جاعلًا من تآكل الكبد ضريبةً حتميّةً لا مفرّ منها.

وبمجرد إرساء هذه القاعدة يُسدّد ضربته الثانية عبر آليّة التحايل اللفظيّ، والمنطقيّ؛ إذ لا يكتفي برفض مطلب التجلّد، بل يُعيد صياغته كأمرٍ تعجيزيٍّ يتصادم مع التكوين الحيوي للإنسان، فهو يتحايل على النقد بنقله من دائرة السلوك الاختياريّ إلى دائرة الخلقة الفطريّة مُجرّدًا خصومه من سلاح العتاب؛ إذ لا يُلام العاشق على تجرّده من طبيعة الحديد، والصوّان، وبهذا التضافر يُبطل الشاعر حُجّة العُذّال؛ ليُتوّج منتصرًا في دفاعه المبدئيّ عن حقّه الأصيل في الهشاشة الإنسانيّة.

7/ الازدواج بين آليتي الإزاحة والتبرير:

يُشكل الازدواج بين هاتين الآليتين طريقة ذكية؛ لتنزيه مصدر الألم الأصلي؛ إذ تتكفل الإزاحة بإبعاد تهمة التدمير عن المحبوب، وتوجيهها نحو هدف بديل (كالمجتمع، أو الرقيب)، بينما يتدخل التبرير؛ لجعل هذا الهدف البديل علةً منطقيةً، ووحيدةً للانهيار الجسدي، وهذا ما يتجلى بوضوح عند ابن الرومي، حين يبتعد عن لوم المحبوب؛ ليوجه بوصلة صراعه نحو الرقابة المجتمعيّة، وذلك في قوله (ابن الرومي، 2003م، ص316):

لحظات أجفان الحبيب رسل القلوب إلى القلوب
والشوق يفعل بالعزاء فعل الإنابة بالذنوب
لا والذي بجفائه وصل المدامع بالنحيب
ما شفَّ جسمي في الهوى إلا مراقبة الرقيب

يبتعد هذا النص عن الصراع التقليديّ بين العاشق، ومعشوقه؛ ليخوض معركةً أشرس ضدّ القيود الاجتماعيّة الخانقة، وللإفلات من هذا الحصار، الذي ينهش الجسد تتجلّى الضربة الأولى في إزاحةٍ تحليليّةٍ بارعةٍ؛ إذ يُقسم الشاعر مُبرّئًا جفاء المحبوب من تهمة تدمير جسده؛ ليُعيد توجيه بوصلة اللوم كاملةً نحو "الرقيب"، فهذه الإزاحة لا تُمثّل هروبًا، بل ارتقاءً بالوعي ينقل المأساة من خيبةٍ عاطفيّةٍ إلى إدانةٍ للقمع المجتمعيّ.

وعلى أنقاض هذه الإزاحة، تنهض آليّة التبرير؛ لتُفسّر حال النحول، والشفوف العضويّ جاعلةً من المراقبة الخارجيّة علّةً وحيدةً لهذا الفناء، وبفضل هذا التوجيه المزدوج ينجح الشاعر في تنزيه صورة الحبّ المثاليّة، وحمايتها من التشوّه مُحيلًا ضعفه الجسديّ إلى وثيقة إدانةٍ تُحاكم قسوة المجتمع لا قسوة المحبوب.

8/ الازدواج بين آليتي الإسقاط والتسامي:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين محاولةً للهروب من الهزيمة الفردية المتمثلة في النحول الجسدي، والارتقاء فوق كثافة المادة؛ إذ يعمل الإسقاط على تعميم العجز الشخصي، وجعله حتمية كونية تخفف وطأة الشعور بالنقص، بينما يتدخل التسامي؛ لتحويل الانهيار الجسدي إلى حال روحية أثيرية تتجاوز حدود الواقع، وهذا ما يتجلى بوضوح عند ابن المعتز في مواجهة سطوة جمال الحبيبة، التي تُذيب الجسد حين يقول(ابن المعتز، 1961م، 463):

قلوب الناس أسرى في يديه وثوب الحسن مخلوعًا عليه
أسير إذا بُليت وذاب جسمي لعل الريح تسعى بي إليه

يخوض الشاعر في هذين البيتين صراعًا مريرًا مع هشاشته الفرديّة أمام سطوة الجمال المطلق، وللإفلات من وطأة هذا العجز يستهل مناورته بـ "الإسقاط التعميميّ"؛ إذ يرفض الاعتراف بانهياره المنفرد مُسقطًا قيد الأسر على قلوب الناس كافّة، فهذا التكتيك يُذيب الهزيمة الشخصيّة في استسلامٍ جماعيّ جاعلًا من الخضوع حتميّةً كونيّةً تمنح الروح المنهكة عزاءً، ومشاركةً وجدانيّةً.

وعلى أنقاض هذا الجسد، الذي أذابه العشق تنهض آليّة التسامي؛ لتُعالج مأساة النحول العضويّ، فالشاعر لا يرثي فناءه الماديّ، بل يرتقي به نحو أفقٍ غيبي ســـاحر متمنيًا الانعتاق من كثافة الطين؛ ليغدو أثيرًا تحمله الريح، وبذلك يُحيل تآكل الجسد من عائقٍ ماديّ إلى مطيّةٍ روحيّةٍ مُبتكرًا وصالًا أثيريًّا يتجاوز قوانين الفيزياء.

9/ الازدواج بين آليتي الكبت والتبرير:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين محاولةً لاحتواء العاطفة، ثم تسويغ فيضانها؛ إذ يتكفل الكبت بحبس الوجع داخل أسوار الجسد صونًا للكبرياء، أو تكريمًا للمحبوب، وحين تنهار هذه الأسوار تحت ضغط الألم يتدخل التبرير؛ ليفسر هذا الانهيار العضوي، وانكشاف السر كحتمية طبيعية لا طاقة للبشر بردها، وهذا ما يتجلى بوضوح عند المتنبي، حين يُخضع عاطفته لقانونِ احتواءٍ صارم، جاعلًا من السقم لغةً فاضحةً تنطق بما عجزت الجوارح عن طيّه، فيقول(المتنبي، د.ت، 192):

كتمت حبك حتى منك تكرمة ثم استوى فيك إسراري وإعلاني

كأنه زاد حتى فاض من جسدي فصار سُقمي به في جسم كتماني

يُغادر النص فضاء الأخلاقيّات؛ ليتبنّى منطقًا فيزيائيًّا صارمًا تُعالج فيه "الأنا" أزمتها، فتستهلّ الذات تجربتها بممارسة كبتٍ إراديٍّ، ونبيل غايته صون مكانة المحبوب، وتكرمته مُتوهّمةً قدرة الجسد على احتواء طاقة العشق الهائلة داخل جدرانه المغلقة.

غير أنّ انهيار هذه الفرضيّة يستدعي تدخّل آليّة التبرير؛ لتُفسّر انكشاف السرّ لا بوصفه خيانةً للعهد، أو ضعفًا في الإرادة، بل كحتميّةٍ طبيعيّةٍ تخضع لقانون التمدّد، والفيضان، فالحبّ هنا طاقةٌ تتجاوز سعة الوعاء العضويّ، وما السقم الذي اعترى البدن سوى التجسّد المرئيّ لهذا الكتمان المنهار، وبهذا يُعفي التبريرُ الفيزيائيُّ الشاعرَ من وزر البوح مُحيلًا إخفاق الكبت إلى انتصارٍ لقوانين الطبيعة، التي حوّلت النحول من مجرّد عرضٍ مرضيٍّ إلى هيكلٍ بديلٍ ينطق بما استتر.

10/ لازدواج بين آليتي التسامي والتحايل:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين استثمارًا عكسيًا للفناء العضوي؛ إذ يتكفل التسامي بالارتقاء بالجسد المتآكل، وتجريده من كثافته المادية؛ ليبلغ مرتبة الشفافية المطلقة، بينما يتدخل التحايل لتوظيف هذا التلاشي الروحاني كأداة تكتيكية لاختراق حجب الواقع، وهذا التضافر يحول الضعف إلى قوة، والنحول إلى عباءة إخفاء سحرية، وهو ما يتجلى بوضوح عند كشاجم حين يستثمر فناءه للظفر بوصال آمن، وذلك من خلال قوله(كشاجم، 1997م، ص231):

وما زال يبري أعظم الجسم حبها وينقصها حتى لطفن عن النقص

فقد ذبت حتى صرت إن أنا زرتها أمنت عليها أن يرى أهلها شخصي

يدير الشاعر في هذين البيتين استراتيجيّةً دفاعيّةً معكوسةً؛ إذ لا يُقاوم فناءه الجسديّ، بل يستثمره؛ لبلوغ وصالٍ يستحيل تحقيقه في العالم الماديّ تنطلق العمليّة عبر التسامي، الذي يُعيد صياغة فعل التآكل العضويّ، فالحبّ الذي يبري العظام لا يُعدّ هجومًا مُدمّرًا، بل عمليّة نحتٍ روحانيٍّ ترتقي بالجسد حتى يبلغ مرتبة اللطافة، والشفافيّة المطلقة، فهذا الارتقاء يُجرّد النحول من صفته المرضيّة مُحيلًا إيّاه إلى حال وجوديّةٍ تتجاوز كثافة المادة.

وما إن يتحقّق هذا التسامي، حتى تتدخّل آليّة التحايل لاستثمار هذا التلاشي كأداةٍ تكتيكيّةٍ، فالشاعر يستغلّ خفّته اللامرئيّة كعباءة إخفاءٍ تُمكّنه من اختراق الحصـار الاجتماعيّ، وزيارة المحبوبة دون إثارة حفيظة الرقباء، وفي غمار هذا الاستثمار العبقريّ يغدو الإفلاس الجسديّ رأس مالٍ ثمينًا يُشترى به الوصال المستحيل.

11/ الازدواج بين آليتي التعويض والتكوين العكسي:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين انقلابًا جذريًا في موازين الشعور؛ إذ يتكفل التعويض باستحضار بديل خيالي يسد رمق الغياب، وحين يأتي هذا البديل ملغومًا بوجع الفراق، يتدخل التكوين العكسي كقوة تصحيحية تقلب دلالات الألم إلى لذة،

والخوف إلى أمن. وهذا التضافر يعيد كتابة منطق الوجود، وهو ما يتجلى بوضوح عند الوأواء الدمشقي حين يبتكر مسرحًا خياليًّا يدمج فيه اللذة بالألم، قائلاً (الدمشقي، 1993م، ص ص 180- 181):

وزائر راع وجه البين منظره أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

ألقى على الليل ليلاً من ذوائبه فهابه الصبح أن يبدو من الخجل

أراد بالهجر قتلي فاستجرت به فاستل بالوصل روحي من يدي أجلي

يُقلّب الشـــاعر في هذا النص موازين الحقيقة مُتجاوزًا ثنائيّات الخوف، والأمن، والحياة، والموت، عبر دمجها في بوتقةٍ جدليّةٍ معقّدة، ولمواجهة هذا التناقض الوجوديّ تنطلق "الأنا" من آليّة التعويض، فتستحضر طيف المحبوب (الزائر) كبديلٍ خياليّ عن غيابه الماديّ؛ لتشييد مسرح اللقاء الوهميّ.

غير أنّ هذا الحضـور الطيفي يسـتدعي تدخّل آليّة التكوين العكسـيّ لإخراج المشـهد عبر قلب الأدوار، والدلالات كليًّا، فبدلًا من الهروب من ألم الطيف، تُحيل الذات رعب الفراق إلى شـــعورٍ يتجاوز حلاوة الأمن، وتبلغ هذه الآليّة ذروتها الدراميّة، حين يستجير العاشق بقاتله؛ ليتحوّل الهجر المُميت إلى وصالٍ مُنقذ بيد أنّ هذا الوصال يغدو بدوره موتًا مُشتهًى تُستلّ فيه الروح بانتشاء، وهكذا يُمسي القاتل ملجأً، والنجاة فناءً، في ذوبان طوعي يتجاوز منطق العقل.

12/ الازدواج بين آليتي الإنكار والتسامي:

يُمثل الازدواج بين هاتين الآليتين انسـلاخًا تامًا عن عالم المادة؛ إذ يتكفل الإنكار بنفي الوعاء العضـوي الحاضـن للألم لإبطال إمكانية المعاناة البيولوجية، بينما يتدخل التســـامي للارتقاء بهذا العدم الجســـدي نحو هوية أثيرية مجردة، وهذا التضـافر يُحيل الهزيمة العضـوية المطلقة إلى انتصـار ميتافيزيقي، وهو ما يتجلى في نص آخر للوأواء الدمشقي حين يُفكك قيده العضوي، قائلاً (الدمشقي، 1993م، ص 189):

وما أبقى الهوى والشوق مني سوى روح تردد في خيال

خفيت عن النوائب أن تراني كأن الروح مني في مُحال

يخوض الشاعر في هذا النص صراعًا وجوديًّا بلغ أقصـى حدوده مُجبرًا "الأنا" على التخلّي عن الدفاعات البسيطة؛ حيث تنطلق المناورة بتبنّي إنكارٍ جذريّ لا ينصـبّ على الألم ذاته، بل يسـتهدف الجسد الماديّ، فتُعلن الذات تلاشـيها التام نافيةً بذلك شرط إمكانيّة المعاناة، فلم يُبقِ الهوى منها سوى "**روح تتردد في خيال**".

غير أنّ هذا العدم لا ينتهي إلى الفناء، بل تتدخّل آليّة التسامي؛ لترتقي بهذه البقايا نحو حالٍ وجوديّةٍ أسمى، فهذه الطاقة النفسيّة تُوجّه لخلق هويّةٍ جديدة تتحوّل فيها الذات من هيكلٍ ماديّ إلى روحٍ مُجرّدةٍ تعلو فوق قوانين الطبيعة.

المبحث الثاني: آليات الدفاع المركب:

يُقصـد بالدفاع المركب منظومةٌ نفسـية حركية تتألف من ثلاث آلياتٍ دفاعيّةٍ، أو أكثر تتضـافر، وتتكامل في بنيةٍ واحدةٍ؛ لمواجهة صـراعٍ نفسـيّ حادٍّ يُهدّد بتفكّك "الأنا"، وتعمل هذه المنظومة كشـبكة حمايةٍ متعدّدة الطبقات؛ حيث تتولّى كلّ آليّةٍ معالجة بُعدٍ محددٍ من أبعاد الأزمة بهدف حفظ التوازن الداخليّ للذات، حين تعجز الدفاعات الأحاديّة، أو المزدوجة عن صدّ الانهيار.

ويمثل هذا الدفاع استراتيجيّةً نفسيّةً عالية التعقيد تلجأ إليها الذات الشاعرة عندما يصل الصراع إلى مستوى من التشابك، والعمق يهدد بانهيارها الكامل، ففي هذه الحال لا يكفي بناء خطٍّ دفاعيٍّ واحدٍ، أو اثنين، بل تقوم النفس بتشـــييد منظومةٍ متكاملةٍ تعمل في تآزرٍ، وتناغمٍ؛ لتغطية كل جوانب الأزمة، وتؤدي كل آلية في هذا التركيب وظيفةً محددةً كفريقٍ متخصـصٍ يواجه تهديدًا متعدد الأوجه، فقد تبدأ النفس بآلية الكبت في محاولةٍ أوليةٍ لاحتواء المشـاعر، وعندما تفشـل هذه المحاولة، وتفيض العاطفة تتدخل آلية التبرير؛ لتفسـير هذا الفشـل، وإضـفاء المنطق عليه؛ ولأن هذا التبرير قد لا يكون كافيًا؛ لتخفيف الألم تأتي آلية ثالثة مثل التسامي، حتى ترتقي بهذه المعاناة.

إن هذا الدفاع المركب لا يعكس تشـتتًا، بل هو دليلٌ قاطعٌ على شـدة الصـراع، وقدرة الشـاعر الفائقة على إدارة أزمته النفسية بوعيٍ، أو بغير وعي، فهو يبني حصنًا متعدد الطبقات صُممت كل طبقةٍ فيه؛ لمواجهة جانبٍ معينٍ من الألم في محاولةٍ مستميتةٍ للحفاظ على الحد الأدنى من التوازن النفسـي أمام واقعٍ سـاحق، وفيما يلي تجليات هذه المنظومة المعقدة في شعر نحول العشاق:

1/ المنظومة المركبة بين آليات النكوص والتبرير والتعويض:

تُشكل هذه المنظومة الثلاثية معمارًا دفاعيًا متدرجًا؛ إذ يمتص النكوص صدمة الفناء عبر الاستسلام البيولوجي، ويتدخل التبرير لإنقاذ هذا السقوط بمنحه قداسةً عقائدية، بينما يتوج التعويض المشهد بخلق بديل روحي يملأ فراغ العزلة، وهذا ما يتجلى بوضـوح عند قيس بن الملوح حين يُحيل نحوله الجسـدي؛ بسـبب العشـق إلى طقس تعبدي، قائلاً (مجنون ليلى، 1979م، ص 139):

وأغشى فيحمى لي من الأرض مضجعي   وأُصرع أحيانًا فالتزم الأرضا

رضيت بقتلي في هواها لأنني   أرى حبها حتمًا وطاعتها فرضا

إذا ذكرت ليلى أهيم لذكرها   وكانت مُنى نفسي وكنت لها أرضى

إن رمت صبرًا أو سُلوًا بغيرها   رأيت جميع الناس من دونها بعضا

تُجسّد هذه الأبيات ذروة الاستسـلام الوجوديّ؛ فتستهلّ الذات مواجهتها بآليّة النكوص، مرتدّةً إلى استجاباتٍ بيولوجيّةٍ بدائيّةٍ تتجلّى في فقدان الوعي (أغشـى) والالتصـاق بالأرض في تخلٍّ طوعيٍّ عن السيطرة، ولإنقاذ هذا السقوط من العبثيّة تتدخّل آليّة التبرير؛ لترتقي بالانهيار إلى مصافّ العقيدة، فيُسوّغ الشاعر هلاكه بإضفاء طابعٍ قَدَريٍّ، ومقدّسٍ على العشق (حتمًا، فرضـــا) محولاً الهزيمة إلى شـــهادةٍ روحيّة، ولتأمين زادٍ يعيش عليه في منفاه الجســـديّ تُتوّج المنظومة بآليّة التعويض،جاعلةً من الذكر بديلًا عن الحضور، ومن إقصاء العالم تعويضًا سلبيًّا يُفرّغ الوجود من كلّ قيمةٍ عدا المحبوبة، وبهذا تتضافر الآليات الثلاث؛ لتغدو الهزيمة العضويّة أسمى درجات الانتصار الروحيّ.

2/ المنظومة المركبة بين آليات الإسقاط والكبت والتسامي:

تُشـــكل هذه المنظومة الثلاثية جلســـة اســـتنطاق للذات عبر وســـيط خارجي؛ إذ يخلق الإســـقاط قرينًا رمزيًا تُحمل عليه التناقضـات المفقودة، ويتدخل الكبت ليبرز ثقل المعاناة الإنسـانية المكتومة مقارنة بالبوح الفطري، ثم يأتي التسـامي ليرتقي بهذا الوجع الصـــامت نحو ذروة مأسـاوية متفردة. وهذا المعمار النفســـي يتجلى بوضــوح في مسـاجلة قيس بن الملوح مع الحمامة ليُثبت تفوّق وجعه على حزن الطبيعة، حين يقول(مجنون ليلى، 1979م، ص ص 219– 220):

أجدَّك يا حمامات بطوق   فقد هيجت مشغوفًا حزينا

أغرك يا حمامات بطوق   بأني لا أنام وتهجعينا

وأني قد براني الحب حتى   ضننت وما أراك تغيَّرينا

....

ولست وإن حننت أشد وجدًا   ولكني أُسر وتعلنينا

وبي مثل الذي بك غير أني   أَجُلُّ عن العقال وتعقلينا

تنشطر الذات في هذا المقطع لتخوض مواجهة مع قرينٍ مُتخيّل؛ لاستكشاف فرادة الألم الإنسانيّ، فتبدأ "الأنا" مواجهتها بآليّة الإسـقاط؛ إذ لا تكتفي بالتعاطف مع الحمامة، بل تُحمّلها تناقضـاتها الداخليّة، فتسـقط عليها طمأنينتها المفقودة من نومٍ، وتعافٍ؛ لتصبح الحمامة خصمًا رمزيًّا يُتيح للشاعر معاينة ألمه ككيانٍ خارجيّ.

وفي غمرة هذه المواجهة تبرز آليّة الكبت مثل قيدٍ يُميّز المأساة البشريّة، فالشاعر يُقرّ بصدق حنين الطائر، لكنّه يُبرز التباين الجوهريّ بين بوح الحمامة الفطريّ، واضـطراره هو لكتمان الوجع (**أُسر وتعلنين**)، وهو ما يُضـاعف كثافة المعاناة،

ولتتويج هذا المعمار النفسيّ تتدخّل آليّة التسامي مُرتقيةً بهذا الألم المكتوم نحو ذروةٍ مأساويّةٍ تتجاوز مجرّد الحزن إلى التحرّر من قيد العقال، وبهذا التآزر الثلاثيّ يُبرهن الشاعر على أنّ تآكله العضويّ، والنفسيّ؛ بسبب العشق ليس مجرّد استجابةٍ طبيعيّةٍ، بل تجربةٌ وجوديّةٌ فريدةٌ صاغتها قسوة الكبت، وصقلتها نار التسامي.

3/ المنظومة المركبة بين آليات الاستعلاء والإسقاط والتكوين العكسي:

تُشكل هذه المنظومة الثلاثية حصارًا نفسيًا، وأخلاقيًا صارمًا؛ إذ ينهض الاستعلاء بالذات العاشقة فوق مستوى البشر؛ ليربط مظلمتها العشقية بالعدالة المطلقة، وينتقل الإسقاط للهجوم عبر إلباس المحبوب تهمة الجناية، بينما يتدخل التكوين العكسي مثل قوة قمع ذاتية تحول رغبة التمرد، والسلو إلى ولاء مطلق، وشفاعة للجلاد، وهذا ما يتجلى عند جميل بثينة حين يرتقي بقضيته متجاوزًا محكمة البشر، وذلك في قوله (ابن معمر، د.ت، ص 73):

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيب يُروع
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعًا يتضرع؟
فإن يك جثماني بأرض سواكم فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
إذا قلت هذا حين أسلو واجتري على هجرها ظلت لها النفس تشفع
ألا تتقين الله في قتل عاشق له كبد حرى عليك تقطع

يغادر النص دائرة الاستجداء البشريّ ليتبنّى استراتيجيّةً هجوميّةً تنطلق من آليّة الاستعلاء؛ إذ يترفع الشاعر بشكواه نحو العدالة المطلقة مُحتقرًا وساطة الناس، فهذا الاستعلاء يمنحه تفوّقًا أخلاقيًّا ينقله من خانة الضحيّة المستكينة إلى مقام الواعظ المُهيمن، ومُتسلّحًا بهذه السلطة يُوجّه ضربته الثانية عبر آليّة الإسقاط، فلا يكتفي بلوم المحبوبة على الهجر، بل يُلبسها تهمة القتل العمد مُستثمرًا الاستفهام البلاغيّ في قوله: (**ألا تتقين الله؟**) كسلاحٍ ترهيبيٍّ يُثير عقدة الذنب، ويُحيل الصراع العاطفيّ إلى جنايةٍ دينيّةٍ تستوجب القصاص.

ولإجهاض أيّ تمرّدٍ داخليّ على هذا العشق المُدمّر تتدخّل آليّة التكوين العكسيّ كقوّة قمعٍ ذاتيّةٍ؛ فكلّما راودت الشاعر رغبةٌ في السلوّ، والقطيعة انقلب هذا الشعور السلبيّ فورًا إلى نقيضه الإيجابيّ؛ لتغدو نفسه محاميًا يتشفّع لقاتله، وبفضل هذه المنظومة الثلاثيّة يُحكم العاشق حصاره مُستمدًّا شرعيّته من الاستعلاء، ومُهاجمًا بالإسقاط، ومُوثّقًا ولاءه بالتكوين العكسيّ؛ ليُجبر خصمه على الإذعان.

4/ المنظومة المركبة بين آليات الإسقاط والتحايل والتبرير:

تُشكل هذه المنظومة الثلاثية محاكمة نفسية صارمة لا تطلب الرحمة، بل تفرض الاعتراف بالضرر؛ إذ يتكفل الإسقاط بتحديد المتهم، وتحميله مسؤولية خراب الجسد، ونحوله، ويتدخل التحايل؛ لتقديم أدلة قاطعة تجرد الخصم من قدرته على الإنكار، بينما ينهض التبرير بتكييف هذا الخراب كجريمة مكتملة الأركان.

ففي مواجهةٍ حاسمةٍ مع قسوة الهجر، يتخلى بشار بن برد عن لغة الاستجداء، والشكوى التقليدية؛ ليؤسس محاكمةً ماديةً صارمةً على أرض الواقع المحسوس مُقدمًا لائحة اتهامٍ حادةٍ ضد المحبوب عبر هذه المنظومة المركبة، وذلك حين يقول (ابن برد، 1957م، ص ص 25- 26):

يا عبد ضاق بحبكم جلدي وهواكم صدع على كبدي
إني حلفت ألية صدقت بفناء بيت الواحد الصمد
لتركتني صبًا بحبكم وقتلتني ظُلمًا بلا قود
أبقيت من قلبي حشاشته وحللت بين الروح والجسد

يُصادر النص مساحة الشكوى التقليديّة من عذابات الغرام وآلام النحول؛ ليُقيم محاكمةً نفسية تفتتح فيها الأنا مرافعتها بآليّة الإسقاط؛ إذ تُحمّل المحبوبة المسؤوليّة الحصريّة عن تصدّع الكبد، وضيق الجِلد ناقلةً المعاناة من حيّز الضعف

الشخصيّ إلى لائحة اتهامٍ صريحةٍ تُدين الجلّاد، ولإحكام قبضة الاتهام تُوظّف الذات آليّة التحايل عبر استحضار قَسَمٍ مُغلّظٍ (بفناء بيت الواحد الصمد)، وهو قَسَمٌ لا يُراد به إثبات الوجد فحسب، بل يُتّخذ أداةَ إثباتٍ قاطعةً تُورّط الخصم، وتُجرّده من أيّ قدرةٍ على الإنكار أمام شهادةٍ مُقدّسة.

وبمجرّد تحييد دفاعات المحبوبة تبرز آليّة التبرير؛ لتشريح طبيعة هذا الخراب مُفسّرةً الهجر بوصفه جريمة قتلٍ مع سبق الإصرار "بلا قود"، ويمتدّ هذا التبرير؛ ليُعلّل حال البرزخ الوجوديّ التي يعيشها العاشق بين الحياة، والموت مُسوّغًا بقاء الحشاشة كدليلٍ ماديٍّ على الجناية، وبفضل هذه الهندسة المُحكمة يجد الطرف الآخر نفسه مُحاصرًا في زاويةٍ نفسيّةٍ ضيّقةٍ تُجبره على الإذعان لسلطة الضحيّة.

5/ المنظومة المركبة بين آليات الإنكار والإسقاط والتماهي:

تُشكل هذه المنظومة الثلاثية جدلية نفسية عميقة لمواجهة الفراغ المطلق؛ إذ يمهد الإنكار؛ لرفض عبثية الفقد، ويتدخل الإسقاط كقوة خلاقة تستنسخ ألم الذات، وتلقيه على الجماد؛ ليبلغ المشهد ذروته بالتماهي، الذي يذيب الفواصل بين الشاعر العاشق الناحل جسديًا؛ بسبب الغرام، والأشياء محولاً الجماد إلى شريك متعاطف.

ففي مواجهةٍ قاسيةٍ مع الفقد المطلق يفتح ابن الرومي ساحة صراعٍ تتسم بالصمت والوحشة؛ حيث لا خصم يُعاتب، ولا قاضٍ يُحتكم إليه، بل مجرد أطلالٍ دارسة يجبرها الشاعر، الذي برى جسده العشق عبر هذه المنظومة المركبة على أن تتخلى عن جمودها؛ لتغدو مرآةً تعكس ألمه الوجوديّ؛ حيث يقول (ابن الرومي، 2003م، ص ص 2035– 2036):

أسألت رسم الدار أم لم تسأل دمنًا عفت فكأنها لم تُحلل
دُرُسًا براهن البلى بري الضنا جسمي لبين قطينها المتحمل
فلو استطاعت إذ بكيت دثورها لبكت نُحولي بالدموع الهمَّل

يغادر الشاعر موقفه السلبيّ كباكٍ على الديار؛ ليخوض مواجهة مع العدم، وتتبلور أولى مراحلها في آليّة الإنكار المُبطّن داخل استفهامٍ بلاغيّ في قوله: **(أسألت... أم لم تسأل)**؛ حيث ينفي جدوى الحوار مع الفراغ، وعلى أنقاض هذا اليأس تنهض آليّة الإسقاط؛ إذ لا يرى الشاعر في الدِّمَن مجرّد حجارةٍ بالية، بل يُسقط عليها تآكله العضويّ في قوله: **(براهن البلى بري الضنا جسمي)** جاعلًا من فناء الدار معادلًا موضوعيًّا لنحوله الجسديّ.

وبمجرّد اكتمال هذا الاستنساخ الماديّ تبلغ المنظومة ذروتها عبر آليّة التماهي المطلق؛ حيث تنقلب الأدوار من خلال أنسنة الأطلال؛ لتغدو كائنًا شريكًا في الوجيعة. فالشاعر لا يرثي دثور الدار فحسب، بل يفترض بكاءها على نحوله لو أُوتيت الاستطاعة، وبفضل هذا التآزر ينجح الإنكار في كشف عبثيّة الفقد، ويخلق الإسقاط شاهدًا من قلب العدم، بينما يُحيل التماهي هذا الشاهد حليفًا مُتعاطفًا؛ لتُمسي الحجارة الصمّاء الحضن الوحيد القادر على استيعاب مأساته.

وأحيانًا تصل آليات الدفاع إلى أربع آليات مركبة بين آليات التبرير والإسقاط والكبت والتسامي:

تُشكل هذه المنظومة الرباعية مرافعة قضائية، ونفسية متكاملة؛ إذ يؤسس التبرير لبراءة الذات العاشقة عبر تعميم الضعف، وينتقل الإسقاط للهجوم بتوجيه تهمة الجناية في نحول الجسد للآخر، بينما يتدخل الكبت؛ لمنح الصمت طابعًا بطوليًا، ثم يتوج التسامي المشهد بالارتقاء بالمأساة إلى مصاف الشهادة المقدسة، وهذا المعمار المعقد يتجلى عند قيس بن الملوح حين يُنصّب محكمةً وجدانيّةً يُرافع فيها عن براءته؛ حيث يقول (مجنون ليلى، 1979م، ص 188):

صريع من الحب المبرح والجوى وأي فتًى من لوعة البين يسلم
وما هي إلا حسرة بعد نظرة أثارت لهيبًا في الحشاشة يضرم
فلا تقتليني بالصدود وبالقلى ومثلك يا ليلى يرق ويرحم
فوالله إني فيك عانٍ وعاشق أذوب غرامًا فيك والحب أكتم
مخافة واشٍ أو رقيب وحاسدٍ يُحدث ما لا كانت الناس تعلم

يحوّل النص فضاء القصيدة إلى منصّةٍ قضائيّةٍ تترافع فيها الذات، فتستهلّ "الأنا" مرافعتها بآليّة التبرير؛ إذ تصوغ من الانهيار العضويّ قاعدةً كونيّةً حين يقول **(وأي فتى من لوعة البين يسلم)** مُنزّهةً ضعفها الفرديّ بدمجه في سياقٍ إنسانيٍّ شاملٍ لا مفرّ منه، وبمجرّد إرساء هذه البراءة تنتقل القضيّة إلى آليّة الإسقاط؛ حيث يُوجّه الشاعر تهمة القتل العمد للمحبوبة في قوله: **(فلا تقتليني)** واضعًا إيّاها أمام خيارين: إمّا تجلّي الرحمة، أو تحمّل وزر الجناية، وهو ما يقلب موازين القوى لصالح الضحيّة.

ولدرء شبهة الجُبن عن هذا الصمت تبرز آليّة الكبت الواعي كحجر زاويةٍ، فالكتمان هنا ليس عجزًا، بل تضحيّةٌ بطوليّةٌ غايتها صون سُمعة المحبوبة من ألسنة الوشاة في قوله: **(مخافة واشٍ)**؛ ليغدو الصمت برهانًا ساطعًا على نبل الدوافع رغم ذوبان الجسد، وتُتوّج هذه المرافعة بآليّة التسامي، التي ترتقي بالمأساة من درك الشكوى الفرديّة إلى مصافّ الملحمة الرمزيّة مُحيلةً الموت العاطفيّ إلى شهادةٍ مُقدّسة، وبفضل هذه البنية الرُباعيّة تنجح الذات في إعادة صياغة قواعد اللعبة؛ لتصنع من الهزيمة العضويّة انتصارًا أخلاقيًّا باهرًا.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة التحليلية في أقبية اللاشعور للنص الشعري في الغزل العربي القديم، واستنطاق تجربة نحول العشاق وآلياتها الدفاعية عبر عدسة التحليل النفسي خلصت الدراسة إلى جملة من الرؤى، والاستنتاجات المكثفة، التي تعيد تشكيل فهمنا لعلاقة الشاعر العربي العاشق بألآمه الغرامية النفسية، والجسدية الناتجة عن عشقه، وصعوبات التواصل مع معشوقته يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1- تجاوزت ظاهرة نحول العشاق في المدونة الشعرية الغزلية العربية القديمة حدود العرض العضوي السلبي؛ لتتشكل بوصفها استراتيجية دفاعية نشطة، وأبجدية حجاجية يعيد من خلالها العقل الباطن تدوير الهزيمة العضوية، وتحويلها إلى رأس مال رمزي يُستثمر في إدانة الخصم، أو إثبات الوفاء، أو استجداء الشراكة الوجدانية.

2- لم تكن ظاهرة نحول العشاق في القصيدة الغزلية مجرد وعاء للبوح العاطفي، بل تجلت كمختبر وجودي بالغ التعقيد؛ حيث قامت الأنا المأزومة بهندسة بقاءها، واستنفرت عبره شبكات حماية مزدوجة، ومركبة تقيها شر الذوبان في العدم حين تشتد وطأة الاغتراب، وتُسد منافذ الواقع.

3- يعكس الحضور الطاغي لآليتي الإسقاط، والتبرير في ظاهرة نحول العشاق، وتضافرهما المستمر طبيعة التكوين النفسي للذات العربية العاشقة المعتدة بأنفتها؛ إذ تكفلت هاتان الآليتان بترحيل عبء الضعف إلى الخارج (المحبوب/ القدر/ المجتمع)، ومنح التآكل الجسدي شرعية منطقية، وهذا حصّن الكبرياء الجريح من الانكسار المطلق.

4- يرتبط الانتقال من الدفاعات المزدوجة إلى المنظومات المركبة ثلاث آليات فأكثر بعلاقة طردية مع عمق المأزق الوجودي، فكلما اقترب الجسد من التلاشي التام تعقدت الهندسة النفسية للنص؛ لتوفير شبكة أمان متعددة الطبقات قادرة على استيعاب الصدمة، وتوزيع عبء الألم على جبهات عدة.

5- مثّلت آلية التسامي لا سيما حين اندمجت ضمن المنظومات المركبة، ذروة النجاح الاستراتيجي للذات العاشقة الشاعرة؛ حيث أفلحت في تحرير العاشق من أزمة الجسد المنهار، محيلةً طاقة الحرمان التدميرية إلى كمال أثيري، ونصوص خالدة تقهر الفناء المادي، وتتجاوز قوانين الطبيعة.

6- أثبتت القراءة التحليلية لآليات الدفاع المزدوجة والمركبة في ظاهرة نحول العشاق قدرة العقل الباطن على قلب موازين القوى عبر المناورات النفسية كالتحايل، والتكوين العكسي؛ لينتقل الشاعر من مربع الضحية المستلبة

الخاضعة لسلطة المحبوب إلى مقام القاضي المُهيمن، الذي يفرض سرديته الخاصة للألم، ويحاصر خصمه أخلاقيًا.

7- تبرهن هذه المقاربة البينية على أن الشاعر العربي القديم في تجربته العاطفية لم يكن مجرد ناقل منفعل للوجيعة، بل كان مهندسًا نفسيًا بارعًا يمتلك وعيًا لا شعوريًا دقيقًا بآليات إدارة الصراع العاطفي قادرًا على تطويع اللغة؛ لترميم تصدعات الروح، والجسد، وإعادة صياغة قوانين الوجود لصالحه منتصرًا في عالم النص بعد هزيمته في عالم الواقع.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1- أدلر، أ. (2005). معنى الحياة (ترجمة عادل نجيب بشرى، ط. 1). المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.

2- الأصبهاني، أ. م. (1985). الزهرة. مكتبة المنار.

3- ابن أبي ربيعة، ع. (د.ت.). ديوان عمر بن أبي ربيعة (تحقيق أحمد أكرم الطباع). دار العلم.

4- ابن برد، ب. (1957). ديوان بشار بن برد (تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، مراجعة محمد شوقي أمين). لجنة التأليف والترجمة والنشر.

5- ابن الجهم، ع. (د.ت.). ديوان علي بن الجهم (تحقيق خليل مردم بك). وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية.

6- هناء حمّاد. (2026). صورة المرأة في الشعر الأندلسي (دراسة وصفية). *مجلة العلوم الشاملة, 10*(ملحق 39), 1167-1177.

7- ابن الدمينة، ع. ع. (1379هـ). ديوان ابن الدمينة (صنعة ثعلب وابن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ). مكتبة دار العودة ومطبعة المدني.

8- ابن الرومي، ع. ع. (2003). ديوان ابن الرومي (تحقيق حسن نصار، ط. 3). مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

9- ابن شداد، ع. (1992). شرح ديوان عنترة بن شداد (شرح الخطيب التبريزي، تحقيق مجيد طراد، ط. 1). دار الكتاب العربي.

10- ابن فارس، أ. (1993). معجم مقاييس اللغة. دار الفكر.

11- ابن المعتز، ع. (1961). ديوان ابن المعتز (تحقيق كرم البستاني، ط. 1). دار صادر.

12- ابن الملوح، ق. (1979). ديوان مجنون ليلى (تحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج). مكتبة مصر.

13- ابن منظور، ج. د. (1993). لسان العرب. دار صادر.

14- الخبز أرزي، ن. أ. (1989). ديوان الخبز أرزي (تحقيق محمد حسن آل ياسين). مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (40).

15- الدمشقي، م. أ. (1993). ديوان الوأواء الدمشقي (تحقيق سامي الدهان، ط. 2). دار صادر.

16- طه، ف. ع.، أبو النيل، م. س.، قنديل، ش. ع.، محمد، ح. ع.، وعبد الفتاح، م. ك. (د.ت.). معجم علم النفس والتحليل النفسي (ط. 1). دار النهضة العربية.

17- العرجي، ع. ع. (1998). ديوان العرجي (تحقيق وشرح سجيع جميل الجبيلي، ط. 1). دار صادر.

18- فرويد، آ. (1972). الأنا وميكانيزمات الدفاع (ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق). مكتبة الأنجلو المصرية.

19- الفيومي، أ. م. (1977). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. دار المعارف.

20- كشاجم، م. ح. (1997). ديوان كشاجم (تحقيق وشرح النبوي عبد الواحد شعلان، ط. 1). مكتبة الخانجي.

21- المتنبي، أ. ط. (د.ت.). ديوان المتنبي (شرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين). دار المعرفة.

ثانيًا: المراجع:

1- جلال، م. ف. (2018). مبادئ التحليل النفسي. مؤسسة هنداوي.

2- ليلى مولود مبارك سويسي. (2025). الشعر الدوري في الأدب العباسي (المسمط نموذجاً) دراسة وصفية تحليلية. *مجلة العلوم الشاملة*, *9*(ملحق 36), 333-342.

3- زهران، ح. ع. (2005). الصحة النفسية والعلاج النفسي (ط. 4). الشركة الدولية للطباعة.

List of Sources and References:

First: Sources:

1. Adler, A. (2005). The Meaning of Life (A. N. Boshra, Trans., 1st ed.). Supreme Council of Culture, National Translation Project.
2. Al-Asbahani, A. M. (1985). Al-Zahrah [The Flower]. Al-Manar Library.
3. Ibn Abi Rabia, O. (n.d.). Diwan Umar ibn Abi Rabia (A. A. Al-Tabba, Ed.). Dar Al-Ilm.
4. Ibn Burd, B. (1957). Diwan Bashar ibn Burd (M. T. ibn Ashur, Ed., M. S. Amin, Rev.). Committee for Authorship, Translation, and Publishing.
5. Ibn al-Jahm, A. (n.d.). Diwan Ali ibn al-Jahm (K. Mardam Bey, Ed.). Ministry of Knowledge, Kingdom of Saudi Arabia.
6. Ibn al-Dumaynah, A. A. (1379 AH). Diwan Ibn al-Dumaynah (Compiled by Tha'lab and Ibn Habib, A. R. al-Naffakh, Ed.). Dar Al-Awda Library and Al-Madani Press.
7. Ibn al-Rumi, A. A. (2003). Diwan Ibn al-Rumi (H. Nassar, Ed., 3rd ed.). National Library and Archives Press.
8. Ibn Shaddad, A. (1992). Sharh Diwan Antarah ibn Shaddad [Explanation of Antarah ibn Shaddad's Diwan] (Explained by Al-Khatib Al-Tibrizi, M. Tarrad, Ed., 1st ed.). Dar Al-Kitab Al-Arabi.
9. Ibn Faris, A. (1993). Mu'jam Maqayis al-Lughah [Dictionary of Language Standards]. Dar Al-Fikr.
10. Ibn al-Mu'tazz, A. (1961). Diwan Ibn al-Mu'tazz (K. Al-Bustani, Ed., 1st ed.). Dar Sader.
11. Ibn al-Mulawwah, Q. (1979). Diwan Majnun Layla (A. A. Farraj, Ed. & Exp.). Maktabat Misr.
12. Ibn Manzur, J. D. (1993). Lisan al-Arab. Dar Sader.
13. Al-Khubzarzi, N. A. (1989). Diwan Al-Khubzarzi (M. H. Al Yasin, Ed.). Journal of the Iraqi Scientific Academy, Vol. (40.(
14. Al-Dimashqi, M. A. (1993). Diwan Al-Wa'wa' Al-Dimashqi (S. Al-Dahan, Ed., 2nd ed.). Dar Sader.
15. Taha, F. A., Abu Al-Nil, M. S., Qandil, S. A., Muhammad, H. A., & Abd Al-Fattah, M. K. (n.d.). Mu'jam 'Ilm al-Nafs wa al-Tahlil al-Nafsi [Dictionary of Psychology and Psychoanalysis] (1st ed.). Dar Al-Nahda Al-Arabiya.
16. Al-Arji, A. A. (1998). Diwan Al-Arji (S. J. Al-Jubaili, Ed. & Exp., 1st ed.). Dar Sader.
17. Freud, A. (1972). The Ego and the Mechanisms of Defense (S. Mukhaimar & A. M. Rizq, Trans.). Anglo-Egyptian Bookshop.
18. Al-Fayyumi, A. M. (1977). Al-Misbah Al-Munir fi Gharib Al-Sharh Al-Kabir. Dar Al-Ma'arif.
19. Kushajim, M. H. (1997). Diwan Kushajim (A. A. Shaalan, Ed. & Exp., 1st ed.). Al-Khanji Library.

20. Al-Mutanabbi, A. T. (n.d.). Diwan Al-Mutanabbi (Explained by Abu Al-Baqa' Al-Ukbari, M. Al-Saqqa et al., Eds.). Dar Al-Ma'rifa.

Second: References:

1. Galal, M. F. (2018). Mabadi' Al-Tahlil Al-Nafsi [Principles of Psychoanalysis]. Hindawi Foundation.
2. Zahran, H. A. (2005). Al-Sihha Al-Nafsiya wa Al-'Ilaj Al-Nafsi [Mental Health and Psychotherapy] (4th ed.). International Printing Company.